

الزكاة نظام اجتماعي

يحتمه الوجدان ويقره الدين

للأستاذ الشيخ مصطفى الصاوي

المدرس بالأزهر الشريف

لابد للإنسانية في حياتها، من أن تتركز على مبدأ التعاطف والتراحم. فلا يستقيم نظامها إلا حيث تكون متعاطفة مترابطة. وإلا حيث تكون متعاونة متضامنة، فذلك جاءت شرائع السماء داعية إليه في حرارة وصراحة، حاثّة على تحقيقه في إيجاب وتحميم، فاستنت تلك الشريعة العظيمة. شرعة الحث على مواساة المنكوبين، والعطف على الفقراء والمساكين. شرعة الزكاة التي جعلها الدين الإسلامي ركناً من أركانه، ودعامة من أقوى دعائم النظام الاجتماعي. الذي لا بد منه لاستقرار الحياة ونفاسها، فن يتيسر للبشرية أن تقطع مراحل الحياة، بدون ألم ومشقة، ومن غير أن تعمل أو صار السير، إلا بالتعاون والمعاضدة والتعاطف، وأحل طريق للمعاونة وأفضل سبيل للتعاطف هو مبدأ الزكاة التي فرضها الله على عباده المؤمنين لإخوانهم المعسرين.

وكان هذا التعاطف ضرورياً لحياة الإنسانية، لأن الله قد خلق أفرادها متعاونين في المواهب، مختلفين في المراتب، بفعل منهم قويا وضعيفا، وغنيا وفقيرا، وذا موهبة وقدرة على انكد والاكتساب واجتلاب الأرزاق من شتى الطرائق، وعاجزا عن الكسب قد حرم تلك الموهبة، فوقف في ميدان الحياة جامداً، لا يستطيع الكسب. ولا يقدر على جمع الرزق، ذلك ليلو الله الناس، وليتجل الفرق بين الخبز الشحيح البجيل والسمح الندي الكريم.

ففرضة الزكاة ترجع في الحقيقة إلى تبادل الرفق والمعونة بين الجماعة الإنسانية، مرتكزة على مبدأ التعاطف والتراحم، قد أوجبه لتحقيق مبدأ الإيثار المحمود، مبدأ السماحة والكرم والندى، ولتستأصل من النفوس مبدأ من أخطر المبادئ على كيان النظام البشري العام، ذلك أيها السادة هو مبدأ الأثرة المفقوت المدمر الهدام.

فالزكاة تدعو إلى اسمو الروحي، وتحث على التحق بالنبل والكمال، فكما أنها تحث على الإيثار وتدعو إليه، فهي تحارب الأثرة في النفوس حرباً صروساً، لتقصي عنها القضاء. الأخير، ذلك نسلم العالم من خطر ذلك المبدأ الهدام، الذي لو تحقق لرأيت الفوضى ماثلة في أشنع صورها وأدق نظمها.

فلولا قانون العطف الجذب بمغناطيسيته قلوب المؤمنين بالعطف على المعسرين. رأيت الأثرة جاثمة على النفوس، مسرعة إلى الفوضى، تطلقها من عقلها، قراها فاشية تدك

معالم النظام دكا ، ثم ترها تحمل وسائل التدمير والتخريب ، مكان أسباب النظام والتعمير ، فيفسد هذا النظام الكونى الذى تراه سائدا .

فالزكاة إذن أيها السادة هي النظام ، وهي العمران . وهي هناة البشرية وأمنها وسلامتها ، ثم هي بعد مطهرة الأموال ونماؤها ، قال تعالى : " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ " . أرانى أيها السادة قد بانفت في وصف الزكاة ، ولكن إذا عرف أنها نظام الحياة البشرية ، وأنها إسعاد لأولاد آدم ، غنيهم وفقيرهم ، وأن ليس حظ الغنى منها بأقل من حظ الفقير ، عرف أنى لست مبالغاً ، وأنها مبدأ جليل بالعناية ، حقيق أن يعده الإسلام ركناً من أركانه .

فالزكاة صمام للإنسانية مجتمعة ، ولأفرادها كلهم على السواء ، من حيث إن ظروف الحياة قلب ، وأحوالها متغيرة ، لا دوام لها ولا استقرار لشؤونها ، فالغنى اليوم لا يضمن في الغد بقاء عثاه ، والفقير الآن لا يملك استمرار قوته ، والعزيز الساعة ، لا يهيمن على تصرف القدر المستور المغيب بعد ، فيطمئن الى دوام عزه ، وبقاء سطوته ، وآيات التصرف في الكون نواطق بهذا شواهد عليه .

وإذا كانت أحداث الزمان ومفاجئات الأقدار تنتاب الإنسانية كل وقت على حين خفلة منها كما ذكرنا ، فلا بد لها من حصن تحصن به وملاذ يؤويها ، وملجأ تفرغ إليه إذا مستها الضراء وعركتها الأيام وطحنتها ربحى القدر ثم قذفت بها في أحضان البأساء والضراء .

فأين ذلك الحصن أيها المستمعون الكرام . ثم أين ذلك الملجأ والملاذ إذا لم يكن في شرعة الزكاة وكنتها الحريز ملجأ حصين من نواب الدهر وحوادث الأيام .

أيها السادة :

قد يقول قائل ما لنا نرجع الى التشريعات القديمة التى لا تلائم العصر الحاضر ولا تساقق المدنية الحديثة ، فى حين أن العلم والفكر قد قدما للبشرية من الأوضاع ما يكفل سعادتها واستمرار هئاتها ، فهناهى الدول الغربية قد نظمت الاحسان فأنشئت الملاجئ والمصانع والمصحات والمدارس .

ولكنى أقول : هذا صحيح ولكنه لم يف بالغرض المطلوب فلا تزال البشرية مع هذا التنظيم تعاني البأساء والبقر وما هذا الاحسان المنظم فى شتى صورته إلا نوعاً من العطف الذى احتوى كل أنواعه مبدأ الزكاة . ولو أن هذا القائل تأمل نظام الزكاة الشرعية ملياً وعرف سر التشريع فيها لكفى نفسه مؤونة هذا السؤال .

على أن ما لدعونه تنظيم الإحسان ليس فى نظر المنطق الاجتماعى السليم إلا من كبرى الجرائم ، ذلك لأن فصاراه إجراء الأرزاق على قوم سجناء فى الملاجئ ، فهو يحفظ عليهم حياتهم حقيقة

ولكنه مع ذلك معطل لمواهبهم محمد لحواجزهم ، قد قتل فيهم روح الحركة الناشطة والدأب المحمود ، فهم لا يستطيعون استجابة لدعوة المواهب ولا تلبية لنداء الحوافز .

أما مبدأ الزكاة فقد جعل الفقير حرا فيما يعطى له ، فقد يتخذ وسيلة للكسب ونواة للعمل فتسع بالتدريج دائرة عمله وتكثر موارد رزقه فيمسي معطاء للزكاة مفرجا عن المكروبين عونا للثوساء والمعوزين ، ويصبح مطلوبا بعد أن كان طالبا ، والوقائع شاهدة بهذا مقررته له فكم غنى افتقر بعد غناه ، وكم فقير ابتسمت له الحياة وصادفه القدر فأصبح ثريا كبيرا بفضل مواهب كانت تموت لو انفق عليه في الملجأ .

وقد يقول بعض المفكرين إن الحكومات لو قامت بإنشاء المعامل والمصانع والملاجئ وما إليها ما رأيت بأثسا ولا فقيرا ولا استغنى العالم كله عن نظام الزكاة .
وجوابنا عليه بواحد من أمور ثلاثة :

الأول -- ماذا يصنع في العواجز والعجائز وذوى العاهات والزمنى وأولئك لا يستطيعون العمل ؟

الثاني -- أن الحكومات مهما أوتيت من القوى الفكرية والمالية لا تستطيع أن تقوم بكل شئ ، في سبيل أولئك ، وهي أيضا لا تستطيع أن تمتع طوائى الزمان فقد تحفظها الأقدار بالفيالق والكائب من هؤلاء وأولئك فتعجز عندئذ وهل هي ستعنى بهؤلاء وذلك يقتضيها صرف الوقت والمال في شؤونهم أم تعنى بالشؤون العامة للدولة .

الثالث -- وهو في نظرى أبلغ من الأولين ذلك أن كل شعب يعتمد على حكومته في كل الشؤون نحو الشعب الذى لا يزال طفلا يحتاج الى إشراف أمه والالتجاء اليها لأقل موجب وإن شعبا على هذا الوضع يجب أن يستبعد عند الحساب من عداد الشعوب الناهضة . أما بعد فإذ نظام الزكاة نظام محكم متين يرمى الى مقصد نبيل فذ دعا الفرد الى الاستقلال الذاتى والعمل الفردى والتفكير الشخصى بحوافز من فطرته كما دعا الجماعة الى العمل الاجتماعى والتفكير الاشتراكى فجعل للفرد ما للفرد وللجماعة ما للجماعة ، وكفى بذلك دليلا على أن وضع السماء حكيم وأن أوضاع البشرية خلون الحكمة ولا تعمر الا قليلا .

أرأيت أيها السادة أن تشريع الزكاة نظام يقوى روح الكمال والاستقلال فى الشخص ثم كيف يبىد الأثرة ويحلى الإيثار مكانها ، ثم أرأيت كيف أنه سبيل اليسر والرخاء بين جميع أفراد القافلة البشرية ، ثم أرأيت أنه يحول بين الأنظمة وعوامل التخريب والتدمير .

فظام الزكاة على الخط الذى حدده الإله الحكيم ضرورى لحياة الانسانية محتم لسير هذا العالم فى دائرة النظام القويم ، فلا يستغنى عنه الناس ما داموا مختلفين فى المراتب قد فضل الله بعضهم على بعض فى الرزق اللهم الا اذا أراد الله أن يبدل المخلوقات ويغير هذا النظام بنظام

الحرى جعل .. س سوا - في رزق لا تدسل بهم - وهذا لن يكون باولول كان لفسدت السموات
والاراض غفقدان قابول تدافع رشارح لمدى اراده الله ولا رادلك اراد ، فاذن يجب ان
يسود تشريع السماوى و الزكاة ، ون يعمل به على وضعه الصحيح ليحيا الناس اخوانا
مصابين وتنتفض سير البشرية في احياه ويحل الونام محل الحرب والخصام .

الزكاة ادن فيها لسادة هى الحصص لمدى يؤى اليه كل من غالبته الايام فعبته وجاهدته
الاحداث بتهدته ، فاذا ما آوى به للعرب بيهود وحده فيه انس الطمانينة وراحة القلب
واعقل بعد ذلك امرت الجبار وهذا ضراع لرهيب فيستريح ثم يستجمع نشاطه ان كان
فيه بقية من نشاط . ثم يعود الى مصارعة لايام ومجازبة الارمانت واقتناص اسباب الحياة
بعد ان يكون قد هدأ من حرب الايام فتره لم تنته فيها العرى والجوع ، ولم يهدم بباء امله
ياس . او قوط ، ذلك لانه وجد في شرعة الزكاة جنة تقيه شر ذلك كله . ثم رأى في قلب
الانسانية الرحيم الذى عرف حكمة زكاة فاداهها بعد ان تاكد من انها نفع متبادل يصل
وشائج الانسانية ويحل كلها ويرفه عن معدمها حير ملاذ يؤى اليه من غائلة الايام وحدتها
وثورة الاحداث وشدها .

فله ما أضع هذا لعلاج الذى يجعل سلسلة الآمال في الإنسان متصلة الحلقات مطردة
لسير ، ويحول بين الانسان وبين هلاكه بعوامل الياس أو تقنوط . والانسان كثيرا ما يجد
السلوى و الآمانى و الآمال .

ومبدأ كهذا له كبير الأثر و حياة انبشيرية وطمأنيتها ، وهو السبيل المعبد لسير القافلة
لبشرية في طريقا الى النهاية متساندة الركب آمنة مطمئنة يأتها رزقها رغدا من كل مكان ،
يقول إن مبدأ كهذا أيضا لسادة يجب الايمان به والعمل في سرعة على إقامة بذاته ، كما يجب
أن تفرح الانسانية بذلك التشریح الذى حفظ نظام الاجتماع من التداعى والانحلال وكان
سببا في الإبقاء على بانها و صيانتها من الانهيار .

وبذلك تبين أنها ضرورية لمجتمع الانسانى كله ، لأن الغنى في حاجة اليها كالفقر بل أشد
لا كما يفهم البعض من أن الزكاة مجرد إحسان من الأغنياء وتبرع باليسير من المال للفقراء
لا بل هى ميدان تنابرى فيه العواطف ، ومصار تتسابق فيه النفوس والشاعر ، من أحرز
فيه قصب الزهان فهو الفرد الكامس امدى نضحت بشريته فتمحققت إنسانيته ، ومن قوتت
فيه حمته وقعدت به جبلته فبئس لإنسانيه بسبيل .

ولو أن الناس أقاموا الزكاة ما رأوا خطرا ولا دهمتهم تلك المنزعات . ولا فاجأتهم تلك
المروعات ، ولا حاطبتهم تلك المدفع بأفراط من قذائفها ولا مطرتهم سحب العواثرات بوابل
من غيثها المهيب الرهيب .

فما كانت تلك الأرزاء التي تحيق بالإنسانية إلا نرا مباشرا لتذمر بعض الإنسانية من
البعض ، ذلك التذمر الذي بعته من مرفق إمساك البعض الأول عن البعض الثاني الذي
قام يطلب سبب حياته ، وهو لن يضل اليه بالدين فوضل اليه بالمسرف والخبروت ، فما كانت
أيها السادة تلك الثورات المدمرة والاشتراكيات الناتجة على اختلاف أنواعها إلا بسبب انعدام
مبدأ الزكاة والضلال في طريق طلبه ، فكانت ثورات وكانت اشتراكيات مدمرات لم تستقر
ولم تهدأ حتى امتشق الحسام فهدمت صوامع وبيع وخربت بيوت وشردت ملوك .

ولو أنهم أيها السادة اذ أرادوا تحقيق مبدأ الاشتراكية المنظمة بلأوا ان تشريع السماء
في الزكاة لتغيرت وجهة التاريخ ، ولرأت الأمن سالدا والطمأنينة شاملة والناس في رغد من
الحياة رغيد ، ولكنهم ضلوا السبيل فعموا عن الحق وباءوا بالهلاك المبين .

أليس الفقير أيها السادة في حاجة الى حفظ حياته يعمل لها بكل ما أوتي من قوة فاذا
لم يجد ما يحفظ حياته فإلى أين يلجأ؟ لا جرم أنه مرغما سيتخذ طريقه في طلب الإبقاء على نفسه
مهما كلفه ذلك من تضحيات ، فتراه قد استحال من انسان ودع هادئ قانع خاضع للنظم
الى وحش ضار وحيوان مفترس يدمر كل ما يعترضه في طريقه الى الحياة ثم تراه قد ثار على
النواميس القائمة ثورة عاتية لا تحمد مقيبتها ، بيعتدى على مال الأغنياء طالب القوت فإن منعه
حارب المأتعين حربا لا هوادة فيها فإما أن يتم له النصر والغلبة ، وإذ ذلك تسود الفوضى وتعم
البلاد ، وإما أن يخرصر بها في ميدان المطالبة بالقوت بعد جلاذ ونضال ، وحينئذ تفقد البشرية
بعض أفرادها ويأخذ بناء الإنسانية في التدهور والتداعي ، ثم لا يجد الفنى بعد ذلك من يساعده
على استثمار أمواله وتمييتها ، ومعنى هذا أن تقف دولاب العمل ويختل ناموس البشرى العام
وفي هذا وذلك كل الويل والأخطار على أولاد حواء .

وبما ذكر تجلي أيها السادة عاقبة بيع الزكاة ، فماذا على الناس لو أقاموا هذا الحصن
ليكون ملاذا للناس ؟

• مصطفى الصاوى